وردة اليازجي

مي زيادة

مؤسسة نوفل







وردة اليازجي



مَيّ زيادة

وردة اليازجي

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٩٨٠

© مؤسسة نوفل

شارع سوريا - بناية صمدي - صالحة، تلفون: ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب: ١١/٢١٦١
بناية مركز الأطباء - جانب مستشفى الجامعة الأميركية - تلفون: ٣٥٤٨٩٨
شارع المعماري - بناية نوفل - تلفون: ٣٥٤٣٩٤ - تلكس: نوشاتن ٢٢٢١٠ - لبنان



وردة اليازجي



كلمــة

هذه الرساله الوجيزة التي ستقرأ ألقيتُ محاضرة في جمعية الشابات المسيحية في منتصف شهر أيار « مايو » سنة ١٩٢٤ ونشرت تباعاً في « المقتطف » .

توفيت وردة اليازجي في مطلع تلــك السنه بمدينة الاسكندرية . والأستاذ سليم سركيس صاحب الأسلوب اللبق الخاص في التمهيد لبعض الموضوعات والتنبيه الى ما يحب من الأغراض ، نشر يوماً في مجلته خطاباً منه الى وردة اليازجي في السماء وأخبرها في الختام أني عاكفة على درس آثارها على الطريقة التي درستُ بها « باحثة البادية » من قبل . فوقعتْ كلمته مني موقع الحضّ والاستحثاث . وأردتُ أن أقوم بالواجب نحو اليازجية مع علمي بصعوبة الكتابة عنهــا لتشابه المعاني التي تركتها في الشعر والنثر وخلو آثارها مما قد كان يرسم صورة من طبيعتها وميولها الصميمة .

وإذ تلقيت دعوة الجمعية إلى إلقاء محاضرة مع الحرية في اختيار الموضوع ، كان خيال الست وردة يطوف في خاطري ، وديوانها بين يديّ أقلّبُ صفحاته وأستخرج عصيره .

ولا يسعني هنا إلا أن ألمح ولو بإشارة طفيفة إلى تقديري لجهود العاملات من اللاتي سبقن جيلنـــا ففتحن لنا الطريق . أقول : « فتحن الطريق » مع أنهنّ وضعن عند عتبة المجاهل علامة ليس غير . على أن لتلك العلامة قيمتها وفائدتها ، لا سيما إذا ما ذكرنا الوقت الذي وُضِعت فيه . فبقي علينا نحن أن نستكشف طبيعة المرأة الشرقية لنسجلها في الوجود ، ونسعى بعدئذٍ لانمائها وصقلها فنبرزها كما هي في جوهرها تحفة وينبوعاً وذخيرة .

انّ خير ما تركته شاعرتنا أبيات النوح والرثاء . وهي لم تكن تدري انهـــا ستنشيء بعد وفاتها « قصيدة » من أنفع قصائدها . ألا وهي أن تباع هذه المحاضرة التي أوحاها اسمها في سبيل إعانة المنكوبين ببلادها .

ألا فلترفرف هذه الفكرة على مضجعها الأخير رفرفة رقيق النسمات وحبيب الذكريات !

ميّ

وردة اليازجي

أيتها السيدات والأوانس ،

أكادُ أشعر بأني معبّرة عن رأي كلٍّ منكنّ بتحبيذ هذه الاجتماعات النسوية والتنويه بالفائدة منها والنتيجة . لأن المرء كثيراً ما يتجرّدُ من شخصيته الصميمة أمام من يختلف عنه بطبيعته وأحواله ، وذلك ليهتم بأمور غريبة عنه وقد لا تروقه دائمـاً .

وفي هذا التجرُّد من الشخصية لإستيعاب ما هو غريبٌ عنّا غيرية ممدوحة توسّع النفس وتهيّئها للإلمام بجزءٍ أكبر من الحياة . ولكنّ من طبيعة الانسان – فرداً كان ، أم مجموعاً ، أم جنساً – أن يرجع الى نفسه حيناً بعـد حين . فيتعهّدها بالسكوت والتأمّل ، أو يتحدّث عنها بأسلوب من الأساليب ، أو هو يصغي الى المتحدثين عن نفوسهم ، أو عن نفوس الآخرين بما في وجدانه من الخوالج الواضحة أو المبهمة .

ولمّا كنا في مثل هذا الاجتماع عاكفات على شؤوننا النسوية دون رقيب أو محاسب تيسّر لنفوسنا أن تصفو من الشوائب فتستسلم لما يجوز أن نسميه « مغناطيس الخير » . وما هو إلا ذلك الفيض الذي يغمر كل جمهور التأم لغرض نبيل . فيدفق في كل قلب وينعش منه القوى ، ويحمله على تقدير ممكناته وتقدير الحياة . فيعود القلب جذلاً كأنه وجـــد نفسه فهزّته عوامل العطف والصلاح والنشاط وحبّ السعي لغاية نافعة .

وأني لشاكرة لهـــذه الجمعية الكريمة دعوتها . ولكنت أشكرها الشكر ذاته لو هي دعتني أصغي الى احداكنّ بدلاً من التحدُّث إليكنّ . فإن كل إمرأة مخلصة يسمع الشرق صوتها في هذه الأيام إنما تترجم عن بعض ما يخامر جميع الشرقيات . ويزيد في سروري أن يضمّ هذا الاجتماع طائفتين من الطوائف التي تعلّق عليها البلاد أعزّ آمالها — أعني طائفـــة المعلمات وطائفة المتعلمات .

تساءل يوماً لورد بايرن الذي احتُفل أخيراً بيوبيله المئوي : « ما هو الشعر ؟ » . ثم أجاب « هو الشعور بعالم مضى وعالمٍ مقبل » .

وهذه الكلمة من خير ما يُعرَّف به طور التربية والتعليم . أي أن المنحني على النفوس الفتية يعالج إنماءها وصقلها لا بدّ له

أن يسبر غور الماضي ليكون على بصيرة ممـــا يمكنه أن يعدّ للمستقبل من الشخصيات الصالحة .

هي هذه الفكرة – وقد علمتُ ان هذا الاجتماع سيضم الناظرات والمعلمات والطالبات من مدارس الحكومة – التي ساقتني الى الكلام عن وردة اليـــازجي ، وهي من أشهر النساء اللائي عرفهنّ تاريخ الآداب العربية ومن أذكاهنّ وأفضلهنّ .

١

لمحة في حياتها

يخيّل أن آلهة اليقظة والنشاط شاءت أن تتفقد الشرق حوالي منتصف القرن الماضي فنشأت فئة من فضليات النساء على مقربة من الرجال الذين ُقدّر لهم أن يكونوا عاملين في صرح الشرق الجديد . فولدت عائشة عصمت تيمور في مصر سنة ١٨٤٠ ، وولدت في تلك الأعوام بسوريا وردة الترك ، ووردة كبا ، ولبيبة صدقة وغيرهنّ . وولدت زينب فواز صاحبة « الرسائل الزينبية » و « الدّر المنثور » في صيدا سنة ١٨٦٠ . وولدت في العام نفسه فاطمة عليّة ابنة المؤرخ التركي جودت باشا . وهي رغم كونها كتبت بالتركية فإن لها الحقّ أن تـُذكر بين أديبات العرب لأنها عرفت لغتهنّ، وانتشر صيتها في أقطارهن ، وعاشت طويلاً في بلادهنّ التي جاءتها طفلة في عامها الثالث يوم تولـّى والدها ولاية حلب بعد أن كان وزيراً

للمالية في الدولة العثمانية . ويوم أن ولدت زينب فواز وفاطمة علية ، أي سنة ١٨٦٠ ، كانت وردة اليـــازجي في الثانية والعشرين من عمرها . لأنها ولدت سنة ١٨٣٨ هي ومريانا مراش الشاعرة الحلبية في عام واحد .

تذكرنَ ، أيتها السيدات ، ان ذوي المواهب البـــارزة ينقسمون الى فريقين أولين ينقسم كل منهما بعدئذ الى أجزاء صغيرة شتى : وهما أولاً : الفريق الذي يشذ عن محيطه ويسبق جيله بإدراكه وفطنته وابتكاره . وثانياً الفريق الذي هو ابن محيطه وإبن يومه تتلخص عنده مدركات جماعته وعواطفها فيحدثهم عنها بلهجة بليغة قريبة المنال .

والفريق الأول يكثر مناهضوه في الغالب فيظل منفياً في قومه ، غريباً في جماعته . إن هم أنالوه مرة ما لا يضنون به وبأكثر منه على من هـــو دونه ، فإنهم يكفّرون عن ذلك بتعذيبه بعدئذ ووضع المراقيل في سبيله ما استطاعوا . ولا ينفك الحسد والعجز يهاجمانه بالدسائس والوشايات والتحريف والتحامل والانتقاص ، غير مغتفرين له ما تفرّد به . قلائل هم أبناء هذا الفريق . ولكنهم رسل الالهام . بل هم المستقبل الذي يحيا في الحاضر ، ومنهم تنبثق الأفكار الكبيرة والآراء النيرة ، وأياديهم هي التي تنثر أنفس البذور ، وأصواتهم هي التي ترسل أجرأ الصيحات . فلا يثمر جهادهم إلا بعد وفاتهم يوم يشب النشء الجديد متوقـــداً يقظاً فيتلقف مبادئهم ويحققها شيئاً

فشيئاً . واني لأضرب لكنّ مثـــلاً بواحدٍ من هؤلاء ، وهو قاسم أمين الذي اضطهد في سبيل دعوته الى الاصلاح الاجتماعي . وتولى ربع قرن تقريباً . فإذا بآراء قاسم أحيا اليوم منها في حياته . لقد أنضجها الدهر على مهل . فتناولتها بمعانيها الأصلية القويمة فئة من صفوة رجال الأمة ونسائها .

أما الفريق الآخر فيتكلم بلغة أبنـــاء جيله ، ويعبر عن حاجتهم ، ويشعر بما به يشعرون . فيكونون أقرب الى فهمه وأبعد عن مناهضته . لأنه ثمرة هذا الوسط نشأ على ما كان ينبغي أن ينشأ ، وأظهر من شخصيته مثالاً كريماً وجاء بأحسن ما ينتظر منه . وكأنّ أهل هذا الفريق هم الذين يغذون الجمهور بما يناسبه لينمو ، ويقودونه خطوة خطوة نحو مستقبل يصير عنده أهلاً ليدرك ما يريده أهل الفريق الأول — جماعة الشاذين والخياليين والنظريين كما يسميهم « العمليون » !

من أهل الفريق الثاني كانت وردة اليازجي . نشأت في أسرة يقوم على رأسها ذلك الاستاذ الكبير والدها الشيخ ناصيف الذي كان في طليعة العاملين لإيقاظ الشرق الأدنى من غفوته . وقد اقتفى أثره في الفضل ولداه العالم اللغوي الشيخ إبراهيم ، والأديب الشاعر الشيخ خليل اليازجيان فكانت هي بإستعدادها الأدبي وتوقد جنانها جديرة بأن تكون ابنة هذا الوسط بالمعرفة والاجتهاد كما هي ابنته بالدم والقربى .

ولدت في قرية كفرشيا من ساحل لبنان . وانتقلت مع عائلتها طفلة الى بيروت حيث تعلمت في مدارس الأمريكان الصغرى [1] وتلقت على سيدة يهـودية متنصرة مبادىء اللغة الفرنساوية . ثم عني بها والدها فدرّسها أصول اللغة في كتبه ، وتوسّمَ فيها استعداداً للشعر، فمرّنها عليه بأن كان يراسلها نظماً عند تغيبه عن المدينة ، ويعهد أليها في الردّ على بعض مراسليه من الشعراء .

فقرضت الشعر في الثالثة عشرة من عمرهـا وتعاطت التدريس مـدة في إحدى المدارس الأهلية . وكانت في بيت والديها تساعد على الاعتناء بتربية إخوانها وإخوتها الإثني عشر وهي رابعتهم . وظلت بعد زواجها إبنة وسطها وإبنة يومها ، شرقية تلبس الطربوش ، وتأتزر عنـد الخروج من البيت ، وتشرب القهوة التركية على وقع نقير الماء المعطر في قلب الشيشة الفارسية ، وتنتسب لأسرة أبيها على الطريقة العربية .

ولا علم لنا بتاريخ حياتها الفردية وهل هي كانت بها سعيدة أم غير سعيدة . ولا أثر لتلـك الحياة الخاصة في شعرها الذي لا يرسم إلا الخطوط الظاهرة ، ولا يتكلم إلا عن الحوادث

---

١ — لم تكن « المدارس » أبنية في تلك الأيام على ما قيل لي . وإنما كان يجتمع التلاميذ والتلميذات تحت شجرة سنديان في الغالب فيتلقون دروسهم هناك .

المألوفة من زواج وولادة وموت . وإذ استجوب صورة لها من صنع شقيقها الشيخ إبراهيم وهي في سن الخمسين – أشعر بوضوح أنها كانت في طبيعتها أغنى منها في شعرها .

ففي هذه الصورة الجاذبة ذات العينين العميقتين معان وأغوار لم تبدُ في قصائدها . وأرى في الشفتين المطبقتين بلطف وإحكام مصداقاً لما قيل لي انها كانت عليه من قوة الإرادة والعزم والتروّي والتبصّر[1] . حتى إذا شاءت أن تتكلم كانت من فصاحة النطق وبراعة الحديث بحيث يصمت شقيقها الشيخ إبراهيم تهيّباً في حضرتها ، فيكون لها الحديث ويكون له الإصغاء . قد يرى الأشرار في هذا مجالاً جديداً للطعن في المرأة فيقولون ان الشاعرة كانت تتكلم بدافع حبّ جنسها للكلام ، وان أخاها كان يسكت لأنه رجل ... ولكن لا ننسيَنّ أن هذا رأي الأشرار . وأننا من الصالحين الذين يكتشفون الفضل في معدنه .

وكان زوجها من أهل العلم كذلك فظلت تنظم بعد الزواج .

---

١ – حيتني بعد المحاضرة سيدة قالت انها تمتُّ الى أسرة الشاعرة بأواصر النسب وتجمعها بها الصداقة الشخصية ، ثم أيدت ما ذكرته عن أخلاق السيدة وردة بقولها انهم في عائلتها كانوا يستشيرونها في جميع الأمور وقد أطلقوا عليها اسم « الشيخ محمود » . فما اختلفوا في شيء أو كانوا عند البت في شأن إلا وقالوا : « هاتوا الشيخ محمود ! أين الشيخ محمود يفض المشكل » ؟

واستخرجت من منظوماتها ديوان « حديقة الورد » الذي طبع أول مرة في بيروت سنة ١٨٦٧ أي بعد زواجها بعام واحد . وأُعيد طبعه بعد عشرين سنة . ثم طبع مرة ثالثة سنة ١٩١٤ في مطبعة هندية بمصر . وكانت تضيف الى كل طبعة حديدة خير ما نظمته في تلك الفترة حتى استقرت الطبعة الثالثة على نحو مائة صفحة من القطع الكبير . وهي هذا الكتاب الذي ترين ، أيتها السيدات .

وأني لأرجو السيدة نور الهدى[1] أن لا تعاقبني هذه المرة لأن كتابي ممزق . اني شديدة الحرص على كتبي عـــادة . وما أصبحت «حديقة الورد» على هذه الحالة المهشمة إلا لأني أكثرت من معالجتها وتعذيبها في هذا الأسبوع إرضاء لكُـنّ يا سيداتي . وأحرجني الوقت فلم يسمح لي بتجليد الكتاب .

وكانت الشاعرة قد انتقلت بعد وفاة زوجها سنة ١٨٩٩ إلى الاسكندرية فصرفت فيها بقية حياتها مع ولدها الدكتور سليم شمعون من خيرة أطباء الثغر . ولها ابنة تدعى لبيبة يظهر

---

١ ــ السيدة نور الهدى من خيرة المصريات النابهـــات هي اليوم ناظرة مدرسة المعلمات بشبرا وكانت يومئذ ناظرة مدرسة المعلمات الأميرية ببولاق وكانت في كرسي الرياسة . وقد مهدت للمحاضرة بخطبة جميلة ذكرت فيها السيدة وردة والأسرة اليازجية أجمل ذكرى وشكرت هذه الفرصة التي أتيحت للكلام عنها .

انها نشرت بعض آرائها في الصحف ولكني لم أطلع على شيء من تلك الكتابات . وتوفيت الشاعرة في أوائل هذه السنة وهي في مطلع عامها السابع والثمانين . فذوى بهـــا الغصن الأخير من الدوحة اليازجية الأثيلة .

٢

ديوان حديقة الورد

يقول السيد جورج باز نسيب الشاعرة مناصر المرأة في سوريا من أخلص مناصريها في العالم ان « حديقة الورد » هو الديوان الوحيد الذي طبع ثلاث مرات لشاعر معاصر . وعلى كلٍّ فهو الأثر الواحد الباقي من آداب وردة اليازجي ، ولا شك انها اقتبست اسمه من اسمها . كما يلوح ان اسم الورد المتواتر في كتابات الشعراء كان يذكره بلذة أدباء عائلتها ولو أنهم عنوا به رمزاً غريباً ، كأنه صار يخصّهم أكـــثر من غيرهم لإتصال شاعرتهم به . ففي ديوان أخيها خليل المدعو « نسمات الأوراق » أبيات شجية عن الورد . هذا مثال منها :

ألا روّحوا روحي برائحة الوردِ

فقد جاءنا فصل الربيع من البُعد

ألا متعـــوني مرّة من شميمه
فيذهب عنى بعض ما بي من الوجد

●

ولله ورد ليس يـــبرح ناضراً
فـــلم يكُ مختصاً بشهر له فرد[1]

أتوق إليه مثلمـــا أشتاق أيلٌ
الى ما به يروى ظماهُ من الورد

وأهفو لأنفاس النسيم إذا أتى
لنـــا من لدنهُ حاملاً أرج الندّ

كذلك نتخيّل أن ابن شقيقتها الشيخ نجيب الحداد متشبع من ذكرها عندما يترنم بذكر الورد في ديوان « تذكار الصبا » حيث يقول فيما يقول :

لشخصك من زهر الربى لقبُ الورد
وهيهات ما للورد حسنك في الودّ

تفوقينهُ ريحـــاً ولوناً ومنظراً
وبقياً على طول المـــودّة والعهد

---

١ – أي انه يزهر في كل شهر ولا يقصر على أيار « مايو » الذي يدعوه الإفرنج « شهر الورد » .

فللورد شهر واحـــد ثم ينقضي
وردك باق لا يزول عن الخد

●

فسبحان من أنشاك شخصاً وقد حوى
رياض جنان الخلد باسم من الورد

وقال شقيقها الشيخ إبراهيم في تقريظ ديوانها :

هذي حديقة ورد عزّ جانبهـــا
وحبذا روض ورد يُفرج الكُرَبا

من طافها يرَ فيها الدرّ منتظماً
والطيب منتشراً ، والسكر مختلبا

كالورد نضّدهُ في روضه سحراً
درُّ الندى ، أو كراحٍ كللت حببا

أو بحر خمر بمــاء الورد ممتزج
والجوهر الفرد فيه يمـــلأ العُببا

وهذه كما يظهر أبيات تقريظ للإرضاء لا للتعبير عن رأي في المجموعة .

ولقد دُعيت الوردة ملكة الزهور منذ أقدم العصور وتغنى

بمدحها شعراء جميع الأمم . فزعم الإغريق في أساطيرهم انها نشأت من قطرة من دم أدونيس حبيب الزهرة . أو من قطرة كوثر تناثرت من يد الآلهة يوم ولادة هذه الزهرة ، ربة الجمال . وحسبها آخرون منوّرة من ابتسامة إله الحب ، أو متساقطة من رأس آلهة الفجر عند تسريح شعرها في الضحى .

ومهما كثرت الرموز فالوردة ما زالت كما كانت دواماً زهرة الاحزان كما هي زهرة الأفراح . ترمز الى الشباب والجمال والحبّ كما تستعمل في الزينة والأرواح العطرية والأدواء الطيبة . وتتناسق منها الأكاليل ، أكاليل الوداع ، على قبور الأحباب ونعوش الراحلين كما نراها جميعة ومفرّقة في حفلات الأنس واللهو والطرب .

وذلك شأنها عند وردة اليازجي .

ففي حديقتها ورود باهتة في اللطف والمجاملة ، وأخرى حمراء قانية في المودة والشوق ، والقسم الطامي هو ورود قاتمة . ورود الفراق والحداد ، وورود الرثاء والنحيب المبللة بدموع العيون ، المضمخة بزفرات القلوب .

٣

شعرها

أ – ورود الحاملة الصافية

كل ما نظمته ينقسم الى قسمين : المدح والرثاء .

ففي باب المدح يدخل شعر التقريظ والترحيب والتراسل مع أدباء العصر وأديباته . فهي تستهلّ حديقتها بأبيات ردّت بها على الشاعرة وردة ابنة نقولا الترك الشاعر . والشطر الأول من المطلع سار في الآداب السورية مسير الأمثال وصار نعتاً للسيدة وردة . وهو :

يا وردة الترك ، اني وردة العربِ

فبيننا قد وجدنا أقرب النسب

أعطاكِ والدكِ الفنَّ الذي اشتهرتْ
ألطافهُ بين أهل العـــلم والأدبِ

وقالت تجيب شاعرة أخرى، وردة كبّا (ويظهر أن الشعر في ذلك العصر كان محظوظاً « بالوردات ») :

أزهـــار ورد قطفناها بأبصارِ
ونشر ورد شممناهُ بأفـــكار

ووردة أثمرت في القلب إذ غرست
ولم أرَ وردة تأتي بأثمـــار

لقد سمت في الورى قدراً ، فلا عجب
فالوردُ بين الورى سلطان أزهار

ولئلّا تؤاخذ بإمتداح نفسها عن طريق غـــيرها فقد استدركت في الختام بقولها :

بيني وبينكِ في أسمائنا نسبٌ
لكنما بيننـــا فرق بأقـــدار

والورد من بعضه النسرين يشبهه
في العين ، لكنه من طيبهِ عار

هذا أسلوب من التواضع في الشعر العربي . ونجده كما نجد معاني المدح ذاتها مكرّرة تقريباً في كل قصيدة وجهتها إلى

مراسليها ومراسلي والدها من مصريين وعراقيين وسوريين .
فقد ردت على عالِمٍ من أصدقاء والدها بقولها :

سلام فاح كالورد النصيبي
يُساقُ لذلك الربع الخصيب

إلى من في الكمال له صفات
كمسكٍ فاح منه كلُّ طيب

قصائده كضوء الشمس تجري
ولكن لا تصادف من غروب

وتهدي الى أمين بك سيد أحمد في الاسكندرية نسخة من ديوانها فتقول :

هذي حديقة ورد قد بعثت بها
الى حديقة فضلٍ في الورى عظما

سيّرتها نحو غيثٍ طاب موردهُ
مشفوعةً بثنــاءٍ أشبه النسما

يشدو بهـا كلُّ بيتٍ في مناقبهِ
حلا بوصفك نظم الشعر فابتسما

وجواباً على رسالة أخرى من أديب مصري :

أهلا بخودٍ إلينا أقبلت سحراً

تزهو كبدر الدجى تحت الظلام سرى

أرى عليها لآلي النظم زاهرةً

من بحر علم يروق السمع والبصرا

جاءت من البحر فوق البحر زائرةً

فليس نعجب ان أهدت لنا درراً

وقالت مرحبة بالأميرة تاج الشهابية وقد جاءت « رأس بيروت » :

مالي أرى الرأس من بيروت مبتسماً

والزهر ينبتُ فوق الروض أفواجا

وقلت ماذا اقتضى هذا السرور لها

قالوا رأت في أعالي رأسها تاجا

ورحلت تلك السيدة الى مكان يقال له « الوادي » فقالت الشاعرة :

تحيــة من مشوق زائد الغلل

تهدى الى تاج مجد من ذوي الدول

لطيفة الذات يهديها النسيم الى

وادٍ له الشوق في الأحشاء كالجبل

إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها

كأنها الشمس حلّت منزل الحمل

وأصغين جيداً الى هذا البيت :

يا من بها زهت الأيام قائلة
لا تحسبوا أنّ كلّ الفضل للرجل

وحيث البرنسس نازلي المصرية يوم زارت لبنان كما حيّت الأميرة نايلة شقيقة السلطان عبد الحميد ، ومما قالته في الترحيب بها :

يا ثغر بيروت البهيج ، تبسّمِ
وبحمد خالقك الكريم ترنّمِ

اليوم زارتك المليكة فاكتست
شرفاً ربوعك بالطراز المعلم

هي غصن دوحة آلِ عثمان الألى
شادوا فخاراً ليس بالمتهدّم

قومٌ لهم شرف الخلافة والعلى
بين الملوك من الزمان الأقدم

ومنها هذا البيت الذي أودُّ أن أوجّهه الى كل فاضلةٍ من إخوات المحجوبات :

خودٌ بدت تحت اللثام ، ومجدها
قد لاح بين الناس غير ملثم

وجواباً لعيسى أفندي اسكندر المعلوف المؤرّخ والعضو في المجمع العلمي بدمشق :

أهـلاً بأكرم غـادةٍ   أهدى بها المولى الخطير

●

باتت تطارحني حد   يثاً رقّ كالماءِ النمير
عـذبٌ يروق زلالهُ   ورداً ويُشرب بالضمير
من كل قافيـة بدت   كالزهر في الروض المطير
ولطيف معنى كالنسيم   جرى بأنفاس العبير
خلعت عليّ من الثنا   ثوبـاً بمرسلها جـدير

وقالت مقرّظة تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب طرازي ، وقال لي حضرتهُ ان هذه الأبيات آخر ما نظمت :

يا ذا الهمام الذي أحيت عنايتهُ
تاريخ كتّابنا من سالف الزمن
خلّدت ذكر الصحافيين فيه كما
أوليتهم منـةً من أعظم المـنن
فلترو فضلك منهم ألسنٌ بقيت
وليشكرنّك عظم في التراب فني

وقالت حينما انتخب دولتلو سليمان أفندي البستاني مبعوثاً عن بيروت :

أخلق ببيروت دار العلم من قدمٍ
أن تصطفيك على الأيام معوانا

فالله لما ارتأى إعلان حكمته
ما اختار من شعبه إلا سليمانا

ومن أهم هذه المجاملات ما راسلت به الشاعرة المصرية عائشة عصمت تيمور التي أثنت عليها في مقدمة ديوانها « حلية الطراز » ثم أهدت اليها نسخة منه . فعقب ذلك مساجلة لطيفة في الشعر والنثر حيث تبارت كل من الشاعرتين في مدح صاحبتها وتنضيد القول . وقد أثبتت هذه المراسلة زينب فواز في « الدر المنثور » . أما في « حديقة الورد » فلا نجد إلا قصائد اليازجية الى التيمورية . ومنها شكر على الهدية :

قد أعاد الزمان عائشة فيـ
ـها فعاشت آثار علم قديم

هام قلبي على السماع وأمسى
ذكرها لذّتي وفيه نعيمي

ورداً على رسالة :

يا نسمةً من أرض وادي النيل
وردَت فأطفت بالسلام غليلي

نفحت بلبنان ففاح أريجها
سحراً بأشهى من نسيم أصيل

●

عزّ اللقاء على المشوق والمنى
عندي حديث ليس بالمملول
وعلام لا أهوى علاكِ وما الذي
بهواي فيك ترى يقول عذولي ؟
أنت الفريدة في النساء، فكيف لا
أهوى حبيباً بات دون مثيل ؟
علـّمتني قول النسيب ، وهجت بي
ما هاج حبُّ بثينة بجميل
شوقي لمجلسك الكريم ، وانهُ
شوق الطروب الى كؤوس شمول

ثم تشكر على ما في الرسالة من ثناء شعريّ :

ولقد أفضتِ عليّ منه لآلئاً
حسدت بها جيدي كرائمُ جيلي
من كل قافية كأبكار الدمى
ترنو إليّ بناظرٍ مكحول

وافت تحييني فأحيت مهجةً
طابت بلثم المرشف المعسول

بذلت لي الودّ الذي استمنحته
فهتفتُ يا بشرى بأكرم سول !

وفي قصيدة أخرى على كتاب « **نتائج الأحوال** » :

فتاةٌ زيّنت جيد المعالي
بدرٍّ من حلى الآداب رطب

أهيم لها على بُعدٍ ، وماذا
على الأقدار لو سمحت بقرب

على مصر السلام وساكنيها
وما في مصر من ماء وتُرب

على ربع به قلبي مقيمٌ
ومن لي أن أقيم مكان قلبي

. . . .

رأيت نتائج الأحوال فيه
ممثّلةً تلوح بغير نقب

لتيمورية العصر المحلّي
بما نسجت يداها كلُّ حقب

أديبــة معشرٍ شرُفت أصولاً
وسادت بين أقلام وكتب

ولا ندري ما إذا اجتمعت الشاعرتان بعد هذه المراسلة يوم جاءت وردة اليازجي مصر سنة ١٨٩٩ قبل وفاة عائشة تيمور بثلاثة أعوام . ففي أبيات الحنين الى مصر لهجة صادقة رغم ان موضوع الأبيات من الموضوعات التي تتطلب المجامــلة لا سيما في ذلك العصر ، حيث لم يكن الصدق غرض الشاعر ، وكان يندر من الكتّاب الذي يعني بأمانة التفكير والتعبير . أقول « في ذلك العصر » مع تمام العلم بأن أكثر مــا يتهاداه الأدباء والشعراء في أيامنا من هذا النوع وان صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم وإحساساتهم .

ب – ورود المودة والشوق

قالت اليازجية التيمورية :

علمتني قول النسيب ، وهجت بي
مــا هاج حبُّ بثينةٍ بجميلِ

إلا اني أشك في أن التيمورية وحدها هاجت عند « وردة العرب » ، « ما هاج حبُّ بثينة بجميلِ » . وأرجح انها ككل

قلب حساس تعلمت ذلك القول في احتياجها اليه لأن الحب لغة طبيعية لا بدّ أن تستوفي حقّها من الوجود بصورة من الصور . وقد كتبت في المودّة والشوق أبياتاً قلائل إلا انها تستمد من عاطفة تملأ القلب رغم التقيّد في التعبير عنها بالمعاني والاستعارات المألوفة . ففي معارضتها لقصيدة ابن زريق البغدادي حيث تجد ما لا مندوحة عنه من جريان « الأدمع كغوادي السحب » و « ذوب الأضلع من الأشواق » ، إذا بنا نعثر على هذا البيت البسيط الصادق حيث نعلم ان القلب المحبّ :

ما زال يصبو إلى ربع أقام بهِ
قلبٌ لهُ ساقهُ شوقٌ يشيّعهُ

ليس هذا البيت من أجمل أبيات وردة اليازجي ولكنه من أصدقها . وهي وان أخطرتنا في العنوان ان الأبيات قيلت في « صديقة » فنحن ندرك أن منها ما هو موجه الى « صديق » . وإنما أخفيت وراء برقع التأنيث في العنوان مجاراة لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتمان عواطفها — حتى في الشعر . أيمكن أن يكون هذا الخطاب « لصديقة » :

رحل الحبيب ، وحسن صبري قد رحلْ
فمتى يعودُ الى منازلهِ الأول
وتضيء أرضٌ أظلمت من بعدهِ
وتقرُّ عيني باللقا قبل الأجل

●

يا غائبـــاً والقلبُ سار بأثرهِ
شوقي مقيم في فؤادي كالجبـــل
إن كنت غبت عن العيون مهاجراً
فجميل شخصك في فؤادي لم يزلْ

أما كيفية سير القلب في إثر « الغائب » وإقامة الشوق في ذلــك القلب باسم « الفؤاد » ، « كالجبل » ، أي كيف يذهب القلب ويبقى في آن واحد وفي بيت واحد ، فمن الأمور التي لا يعرف أسرارها إلا الشعراء والعاشقون .

وفي رسالة فراق أخرى :

مني السلام على ديار أحبــتي
كالمسك تحملهُ الصبا إذ هبت
قسماً بذاك الربـع ، قلبي ما صبا
إلا لربـــع في رباهُ جنتي
يا حبذا تلك الديار وان تكن
ذابت عليها بالصبابة مهجتي !

ومثلها :

مني السلام على الذي هجر الحمى

. . . . . .

الشوق زاد من البعـاد تحسّراً
والنوم صار على العيون محرّما

والصبر عيـــل لهجره ولبعده
والبدر غاب وقطرنا قـد أظلما

يا راحلاً أضحى فؤادي عنده
وبقيت من وجدي أراعي الأنجما

●

فمتى أفوز من الحبيب بنظرة
وتقرّ عيني بعدما قطرت دما

طال البعاد على الكئيب المرتجي
أن يجعل الله اللقاء مقدما

وأخرى :

جزْ يا نسيم على وادي النقا سحرا
وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبرا

وحيّهـــم عن محبٍّ لا يزال على
عهد المودّة ، طال البعد أم قصُرا

●

يا جيرة الحيّ ، هل عودٌ نؤمله
ويا ليالي الهنا ، هل ترجعين ترى ؟

أحبابنا ، مـا أمرّ العيش بعدكم
وهل يطيب لقلب بات منفطرا ؟

وإليكنّ نشيد الابتهاج بالعودة بعد البعاد :

زار الحبيب فزار أجفاني الكرى
ودنا سرورٌ كان عن قلبي سرى

●

أهلاً بمن أخذ القلوب وديعةً
وأعـــادها معه تخوض الأبحرا

إني ظننت لقـــاهُ وهماً كاذباً
إذ كان في عيني يظلّ مصوّرا

●

أهديتهُ درّ الكلام منظّما
يبدو لدى درر الدموع منثّرا

لا ردّ أيام السُّرى بعد اللقا
من ردّ أيام اللقا بعد السّرى

وجميع هذه المعاني على سذاجتها هي أوّل ما يخطر للمحبّ شاعراً كان أم فيلسوفاً أم فلاحاً أميّاً يعمل في الغيطان . لأن عاطفة الحب التي تنشر آفاقاً فيحاء لامعة تترقرق فيها عجائب الوجود ، تحوّل في الوقت نفسه الحياة الى أبسطها بتحويلها مجموع الإنسانية وحصرها في شخص واحد ، وعاطفة واحدة ، وأمل واحد .

ولكن مر على « وردة العرب » طور الصبا والكهولة واستقرّت العواطف بحكم الأيام وبحكم الأحزان . وسكنت الإسكندرية على مقربة من ولدها فإذا بتذكارات الشباب تعاودها منغمّة في قلبها أنغام الإيقاع والموسيقى الشعرية فقالت في التذكار والشوق الى لبنان :

يا رُبى لبنان ، حيّاكِ الحيا
وسقى تربك هتّان الغمامْ

يا ربوع الانس ، يا دار الصفا ،
يا جنان الخلد ، يا أهنا مقام

حبذا لبنان مع غاباته
حبذا تلك الصحاري والآكام

●

وخرير الماء في تلك الربى
كحنينٍ من محبٍّ مستهام

حبذا منه ربيع قد حكى
معرض الأزهار يزهو بابتسام

●

أنت لي يا خير أرضٍ جنّةٌ
جمعت كل سرور وسلام
حبذا أيام إنس فيك يا
وطني المحبوب زالت كالمنام
طالما هيّج لي تذكارها
شجناً يشعلُ في قلبي ضرام

ج – ورود الغم والحزن

هنا ننتقل الى الورود القاتمة ، ورود الموت والتأبين المنثورة على القبور . قصائد الرثاء هي النصف الأكبر من هذا الديوان . وجرت الشاعرة في هذه القصائد على عادة عصرها في تأبين العظماء والعلماء والأصدقاء وفي وضع تواريخ للوفيات وللأضرحة . فتبدأ هذه المراثي عادة بالحِكَم الشائعة في فلسفة الموت والعجز عن مصارعته وفي أنه لا يرحم أحداً . كقولها في رثاء مارون النقاش :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموت للنــاس كالجزّار للغــنم
فليس يترك من طفل ولا هرم

وفي رثاء الأمير أمين رسلان اللبناني :

كأس المنيــة دائرٌ بين الورى
يسقي الكبير ولا يفوت الأصغرا

ما هذه الدنيــــا بدار إقامة
إلا كطيف الحلم في سنة الكرى

كلٌ الى هــذا الطريق مسافرٌ
لا بـــد منه مقدّماً ومؤخرا

الموت لا يبقي صحيحاً سالمـاً
إلا أتاه بعــلةٍ فتكسرا

هذا أمير المجـــد بات موسّدا
بضريحه المبرور محـلول العرى

هذا هو السيف الصقيل أصابه
سيف من القدر الذي قد قدرا

●

يا من تيتّمت البـــلاد لفقده
وتوشحت ثوب البـلاد الأغبرا

كانت بإمداد الأمين أمينـــة
والدهر لم يمدد اليهــا خنصرا

وفي رثاء السيدة كاتبة بسترس :

داعي المنيّة في البرية قد دعــا
لينبّه الغرقان في سنة الكرى
سكر الجميع بحب ذي الدنيا فما
فاق امرؤٌ منهم ولا أحد صحا
في كل يوم قـــام ميتٌ منذرٌ
يدعو ، وما من سامع ذاك الدعا

وهذا البيت الجميل في بساطته ومتانته :

يشقى ويبني المرء طول حياته
والموت يأتي هادماً ما قد بنى

والغريب انها تجد سبيلاً الى تفسير الموت على ذلك النحو من « الحكمة » عند وفاة طفل لها تقول انه كان في غاية الذكاء :

زوّد النفس قبل شدّ الرحال
إنّ هذي الحياة طيف خيال

وأصحبن إلتقى أمامك مصبا

حاً لتجلو ظلام تلـك الليالي

وبعد عشرة أسطر بهذه اللهجة تخاطب الطفل قائلة :

يا هلالاً قد احتوى نور بدرٍ

كيف لو تمَّ نورُك المتلالي

وليس هذا الطفل بالعزيز الوحيد الذي خلـّف لها الحسرة ، بل تعـدُّ وردةِ اليازجي بحقٍّ شاعرة الرثاء والتأبين فهي رثت إخوتها الستة وأختاً. ورثت والدها وزوجها وولدين لها وبنتاً . فتقول في رثاء أخيها حبيب الذي يظهر انه كان شاعراً أيضاً :

يا عين وردة ، في الأسحار والأُصُل

أبكي لفقد حبيب عنـك مرتحل

ويا فؤادي تفتـّت بعد مصرعه

فإن سيف المنايا سابق العَذَل

ويا سلوُّ ابتعد عن مهجتي أبداً

ويا دموع أنزلي كالعارض الهطل

ويا حمـائم نوحي واندبيه معي

وغرّدي بالأسى والحسن ، لا الجذل

●

يا فارس اليوم أبشر قد أتاك على
قرب حبيب ، فلا تشكو من الملل
بدران أظلمت الآفاق بعدهما
في مقلتيَّ ، وضاقت بالأسى سبلي

أما فارس الذي تذكره فهو أخ لها توفي قبل حبيب .

وفي رثاء أخيها نصّار وقد توفي بمدينة زحلة :

يا ويح قلبي كم سهم أصيب به
فلم يزل بدماه الجفن يختضبُ
مصائب لستُ أدري من تكاثرها
فيه على أيّها أبكي وأنتحبُ
يا أرض زحلة ، لي في حبها شغف
إذ في حماها شقيق الروح محتجبُ
أرض لروحي في أكنافها سكن
لذاك قلبي له في حبها أربُ

●

يا قلب صبراً على ما قد أصبت بهِ
ولا ترُعك البلايا وهي تعتقب

قد عوّدتك الليالي الحزن من صغر
حتى غدوت الى الأحزان تنتسب

وهذا المعنى الأخير كررته في مرثاة أختها راحيل :

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر سنه
فلم يدر ما طعم المسرّة في العمرِ
فيـــا ليت كلي ألسن تنظم الرثا
لتعرب عن أحزان قلب بلا صبر
أرى الموت أحلى من حياةٍ حزينةٍ
تمرُّ لياليهـــا أمرّ من الصبر
لـئن جفّ دمع العين مني هنيهةً
ففي القلب دمع سائل أبداً يجري

●

فيا أغصن البـان اندُبنّ معي على
غصين تلقّتهُ يد البين بالكسر !
ويا زهرُ فلتذبل ، ويا زُهر فاغربي
على من كروض الزهر كانت وكالزهر

وفي رثاء والدها :

تـكاثرت الأحزان في كبدي الحرّى
وزادت دموع البين في عيني الشكرى

وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت
بطيّ فؤادي من نوائبهـــا جمرا

●

فقدت أبي مـــالي وللعيش بعده
فموتي من عيشي غدا بـه أحرى
حياة الحزين القلب موتٌ ، وموته
حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى

●

أيا عَلَم الشرق المبجّل ، والذي
أقرّت له بالفضل كلُّ الورى طرّا

●

ويا من بمسراهُ تيتّمت العُـــلى
كما يتّم التأليف والنظـــم والنثرا
لقد ملتَ يا ركن العلوم فأوشكت
لفرط الأسى أوراقه تذهب الحبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة
فها أنا لم أبرح بخمر الأسى سكرى

وفي رثاء أخيها خليل الشاعر :

ألا أيها القلب الحزين ، الى متى
تقاسي خطوب الدهر منقضّةً تترى
تراكمت الأرزاءُ من كل جـانبٍ
عليك ، فـلا يوم يمرُّ بلا ذكرى
فهلّا براك الله من جنب صخرةٍ
تمرُّ عليـك الحادثات فلا تفرى

●

سلام على وجـه الخليل ، وناره
بطيءٌ الحشا قد أفنت القلب والصدرا
على وجههِ الضاحي الوسيم الذي لهُ
بقلبي رسمٌ لا يفـارقه العمرا

وهكذا نراها تهتدي شيئـاً فشيئاً الى التعبير البليـغ المجرّد من التعمل لأن الشعور بالحزن لا يترك مجالاً للتطويل فتقول في رثاء زوجها :

كلما كاد يضمد الجرح ترميني
بجرح مفتت الأكباد

نكبة عند نكبة عند أخرى
كاتصـــال الأسباب بالأوتاد

وأبى الدهر أن يمن بنظم
غير نظم الرثاء والتعداد

سلبتني المنون إنسان عيني
ورفيقي وعمدتي وعمادي

يا أليفي في شدتي ورخـــائي
ونصيري في النائبات الشداد

كيف غادرتني بقلب جريح
يتلظّى في مثل جمر القتاد ؟

كيف أغمضت طرفك اليوم عني
وغدا القلب منك مثل الجماد ؟

كلّ هذا كلام صادق مملوء بالعبرات ، عبرات من رثت كثيراً من رجالها وما زال القدر العنيف يرغمها على رثاء البقية الباقية . على ان أجمل مراثيها وأمتنها نظماً وأشبعها عاطفة ، ولو ان المعاني منها غير جديدة لنا ، قيلت في ولدها أمين شمعون ، وفي أخيها الشيخ إبراهيم .

تتجرّد في مرثاة ولدها أمين شمعون من الخواطر التي ليست هي حزنها مباشرة . فلا تأمّل هناك ، ولا فلسفة ، ولا دروس

في حكمة الموت . بل تساؤل كيف تحتمل الحياة وقلبها مع ولدها دفين :

بأيّ فؤادٍ بعدك أبتغي السلوى
وأنت فؤادي في التراب له مأوى

●

أرى نار قلبي كلّ يومٍ وليلةٍ
تزيد لهيباً كلما زدتُ في الشكوى

لفقد أميني بل حبيبي ومهجتي
وريحان روحي من غدوتُ به نشوى

ويمضي قلب الأم في تصور أوصاف الولد التي تجعله في عينها فريداً بين الورى :

لقد كان في عيني أبهى من الدُمَى
وأعذب في قلبي من المنّ والسلوى

أديب جميل الخلق والخلق طاهر الـ
شمائل صافٍ قلبهُ طيّب النجوى

كصدر القنا ، كالنصل ، كالغصن في النقا
كزهر الرُبى ، كالبدر ، كالرشإ الأحوى

أحنُّ لمرأى تربـهِ كلّ ساعةٍ
وأهفو لمثواه ومـا تحته يُحوَى

أيا قبره هـذا العزيز ، فلا تدع
هوام البلى تهوي عليه كما تهوي

وحافظْ على تلك العظام فإنها
لكنز ثمينَ ليت قلبي لها مثْوى

●

ويا فلذة القلب الجريح الذي مضى
به خاطف الأقدار يستعجل الخطْوا

برغم فؤادي ان أخطّ لك الرثا
وأندب ذاك الوجه والمبسم الحلوا

يفتّتُ قلبي كل شطر أخطّهُ
فإن يمحهُ دمعي السخين فلا غرْوا

أيتها السيدات والأوانس ،

أراكنَّ تبكين وعزيز عليَّ أن أكون سبباً في حملكنّ على البكاء . لذلك سأقصر عن تلاوة شيء من مرثاتها لأخيها الأخير .

الآنسة ميليا بدر وكيلة مدرسة الأمريكان للبنات تقف وتقول :

– هو الالقاء الذي يبكينا . ولكن لا تحذفي من المحاضرة شيئاً .

– رغم البكاء ، ورغم هذه المناديل المنشورة في أيدي أخواتنا ؟

– نعم رغم البكاء .

أصوات – لا بأس من قليل من الحزن والبكاء .

– حسن يا سيداتي وقد صدقتنّ . لا بأس من البكاء على آلام الغير . ولا بد في الشعر من الحزن والدموع . فقد قال أدجر آلن پو بعد كثيرين غيره ان العبقرية الشعرية حزينة في جوهرها وان الطبائع التي تدرك ذلك وتحبه تقرب من تلك العبقرية عند التعاطف في الشجو والكآبة .

قلتُ إذن – ان شقيقها الشيخ إبراهيم كان آخر الباقين من إخوتها . فرثته من قلبٍ متقطع لم يبقَ فيه صبر ومقدرة على الاحتمال ، قلب يعرف انه فقد أخاً تجددت بفقده اللوعةُ على جميع الذين سبقوه . ويعرف كذلك ان الذي فقده صاحب شهرة ذائعة فلا تنسَ الأخت في الحزن سبب افتخارها :

لم يبقَ للحزن لي صبرٌ ولا جلد
ولا دموع تفي لي حقّ من فقدوا
وضاق صدري مما قد تراكم من
حزني ولم يبقَ لي للاحتمال يدُ

●

فارقتني يا شقيق الروح مبتعداً
فمـــا حياتي وأنت عني مبتعد ؟
يا قائل القول ما زلّت به كلمٌ
وصاحب الرأي حقّاً ليس ينتقد
تسير في إثرهِ الافهام قاصدةٌ
مواقع الحق حيث الصدق والرشد

●

فضلٌ سيبقى بقاءَ الدهر متصلاً
عليك لا ينقضي أو ينقضي الأبد
أضحى به لا ينال الموت رفعته
حيّاً أكاد أراه حيث أفتقد

ثم تنسى هذا إذ تتجسّم أحزانها في شهيق واحد :

يا صخر ، بنت الشريد اليوم منتشرٌ
لها عليك قوافٍ في الهوى شُرد
هيهات ما فقدت صخري ، ولا نظمت
دمعي ، ولا وجدت خنساءُ ما أجد

بكت وحيداً ، وأبكي ستة ذهبوا
لكل محمدةٍ بين الورى وجدوا

توفي الشيخ إبراهيم في مصر . ثم نقلت رفاتـه الى بيروت سنة ١٩١٣ . فرافقتها الشاعرة الحزينة . وهناك على ضريح العائلة تليت منها أبيات ، هذه بعضها :

يا قبر اهنأ بما أوتيتَ من ظفر
فقد حويتَ كرام البدوِ والحضر
حويتَ من هزَّ ركن العلم مصرعهم
من بعد مـا ألبسوه أفخر الحبر

●

يا قبر قد عاد إبراهيم ، وا أسفي
يضوي الى أسرة من أتمس الأسر

●

من لي بخـطٍّ يراعٍ منه مبتكرٍ
كيما أخط رثاءً فيكَ مبتكر !

وفي حفلةٍ أقيمت لتأبينهِ في بيروت قالت في قصيدة شكر للمؤبنين :

اليوم ردَّت مصرُ ما أخذت ويا
أسفي ، فقد ردَّته في الأكفان

لم ينسَ عهدكم القديم وقـد أتى
كي لا يزال مجاور الأوطانِ

واشترك السوريون في البرازيل في إقامة تمثال للشيخ إبراهيم فأرسلت قصيـدة الى شكري أفندي الخوري صاحب جريدة « أبي الهول » وصاحب الاقتراح . ومن تلك القصيدة :

أكرم بما جئتهُ يا سيداً عملاً
يزين اسمك بين العرب والعجم
دعوت قومي الى ما ترتئيهِ لهم
صنعاً جميـلاً وبرهاناً لودّهم

●

يا سادةً جمعتهم نسبة الوطن المحـ
ـبوب جمع الثريا غـير منفصم
جدّدتمُ شخص من نهفو لرؤيتهِ
كأنّما هبّ مبعوثاً من الرمـم

●

وما مديحي لـكم حبر على ورق
بل خطّ في لوح صدري شكركم بدمي

لا تصدق على هذه الشاعرة تهمة ألحقوها بالنساء وهي ان الرجال يكتبون لهنّ . بل كانت هي صاحبة أشعارها . وأكبر شاهد على ذلك – كما قال لي دولتلو سليمان أفندي البستاني – أنهم كانوا بديئًا يزعمون ان والدها وأخويها حبيب وخليل ينظمون لها . فماتوا فرثتهم . فقال الناس : ولكن الشيخ إبراهيم حيّ فهو ناظم المراثي باسمها . فتوفى الشيخ إبراهيم فرثته بأبيات هي من خير شعرها في الصدق والأمانة .

وعلى ذكر الشيخ إبراهيم أقول أنهم سيحتفون قريباً بنصب تمثاله في إحدى ساحات بيروت العمومية . على ان شاعرة آل اليازجي لن تحضر ذلك الاحتفال ، ولن ترسل فيه دمعة وزفرة ... ان جسدها يرقد تحت ثرى مدينة الاسكندر حيث تثوي على هدير البحر الذي ما فتىء مهمّاً في مسامع الأحياء والأموات ...

٣

نثرها

يقول جورج أفندي باز انهـــا نشرت بعض المقالات في الصحف والمجلات . وأكبر الظن انهـا جمعت كلها في « حديقة الورد » حيث نجد تقريظ مجلة الفردوس وفتاة الشرق وغـير ذلك ، فضلاً عن مراسلتها لعائشة تيمور . على أن ليس في تلك السطور غير المجاملة والثناء . والرسالة التي عبرت فيها عن رأي اجتماعي نشرت في «الضياء» قبل أن تجمع في «حديقة الورد» . ونهتم بهذا الرأي بعد أعوام لأنه يعالج مشكلاً من مشاكل وقتنا . ومعلوم ان المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية لا تحـل في يوم وليلة . بل تقتضي مرور الزمن لتتناولها الأقلام بالتمحيص . ثم يأتي المران بنبذ ما يحسن نبذه ، واستبقاء مـــا هو في مصلحة المجتمع .

فهي تنتقد المرأة الشرقية لتفرنجها حتى صارت تخجل باستعمال

لغتها والسير على عادات وسطها وتهزأ بقومها لتفاخر بأنها أجنبية . ظنـًّا منها ان كل الارتقاء في اقتباس قشور المدنية وظواهرها في الأزياء والأساليب وتلك الفوضى في السلوك التي تسميها خطأ باسم الحرية . في حين – تقول السيدة وردة – كان على المرأة الشرقية أن تنظر الى أختها الغربية من الوجه الآخر فترى اهتمامها بالأمور الجدية ، وبراعتها في العلوم والفنون وسائر دوائر النشاط الإنساني ، وكيف ان المرأة الغربية رغم تأنقها تقوم بواجبها نحو الأسرة والمجتمع واللغة والوطن . وتستحث اليازجيّة بنات الشرق للرجوع عن ضلالهنّ وإكبار اللغة العربية وان هنّ تعلمن اللغات الأخرى وأحببنها ، وذلك تشبثاً بعاطفة الوطنية ورغبة في النفع القوميّ . ولتجعل نداءها أبقى أثراً تعمد الى ذكر بعض شهيرات العرب من كواتب وشواعر وتضرب بهنّ المثل لتستفز همّة بنات العصر وتدفعهنّ الى العناية بصالح الأمة .

وهذا النداء الذي سمعنا مثله ولكن بلهجة أخرى من عائشة تيمور ، وبعدئذ من باحثة البادية ، نصغي اليه اليوم باحترام وشكر وافتخار . نصغي اليه باحترام لأنه صوت الإخلاص ، صوت الغيرة والحماسة ، ولأنه جليل نبيل . ونصغي اليه بشكر ، لأننا ان نحن سرنا اليوم خطوة في طريقنا على بصيرة فبفضل هؤلاء الذين تقدّموا وتركوا لنا صيحاتهم المباركة يتردد بيننا صداها المتزايد بانضمام أصواتنا الى أصواتهم . ونسمع هذا

الهتاف بافتخار لأن نداء الموتى لم يذهب ضياعاً . بل نهضت المرأة في مصر ، في سوريا ، في جميع أنحاء الشرق العربي بمقدار ما يسّر لها الوسط والأحوال . نهضت تتطلّع الى الحرية النبيلة وتتعرّف حدودها ، وتعزز قوميتها ووطنها ولغتها .

نسمع هذا الهتاف بافتخار لأن نفوسنا اتسعت وعمقت فصارت ترى للأدب والشعر دوراً سامياً جليلاً . مضى وقت التقريظ والمدح والثناء وتنميق الألفاظ . وتناول الأدب جميع مظاهر الحياة القومية في الأخلاق والتهذيب والفنّ والاجتماع والسياسة ، وترويج الدعوة الوطنية للنهوض بالنفوس الى آفاق العلوّ والنخوة والشمم والاستقامة . نفهم الأدب اليوم كما يجب أن يفهمه العائشون في هذا العصر الحافل بعجائب العلم والاكتشاف والاختراع ، هذا العصر الذي سخّر فيه الانسان العناصر لخدمته وحاجته . العجائب أصبحت مألوفة لدينا . فأيّ عجيبة في التليفون ، والتلغراف اللاسلكي ، والكهربائية ، وفي قاطرات الحديد والسفن والبواخر والطيارات ، وأشعة رنتجن التي تنفذ الى داخل الجسم فترى منه الخبايا والتفاصيل كمن ينظر الى سطحه ! وأي عجيبة في عديد الاكتشافات في الرياضيات والكيماويات ، في قياس الأشعة ، في تحديد دورة الكواكب ، في التخاطب بين القارات ، في معجزات الطب والجراحة والهندسة ! ان عجائب العلم لا تحصى وهي في خدمتنا

في كل شأن من شؤوننا ، في حياتنا الفردية والمنزلية ، في يقظتنا القومية ، في مناهضة المراتب وثورات الأمم .

نحن نعرف أن نعجب بما تركه الذين تقدّمونا ولكنّ في تحدّيهم التقهقر لا التقدّم . هم قالوا كلمتهم الموافقة لعصرهم . فعلينا أن نقول الكلمة التي توافق عصرنا . وردة اليازجي ترى كل المنفعة من علم المرأة في تربية البنين ، ونحن نوافقها على ذلك . وسيوافقها كل جيل حصيف في كل عصر على أن هذا ألزم واجبات المرأة . وان أكبر فخرها أن تكون مليكة المنزل وعبدته ، وتعزية الرجل ، والبطلة الكبيرة في سكوتها وانزوائها ، التي تتربّى في حضنها الذراري وتتهذّب بين يديها الشعوب . ولكنّ تأثير المرأة ليس مقصوراً على هذا ، لأن الأمومة ليست اختيارية ، وقد تكون المرأة أفضل أمّ وأفضل زوجة فيظلّ عليها أن تتمّ أموراً أخرى شتى .

المرأة اليوم تستطيع أن تعمل وتؤثر في جميع الجوانب . تعمل بتذكية العاطفة الوطنية في أبناء الوطن ببث الشهامة والنبل في نفوس رجاله ، في تعزيز كيانه المعنوي بالحرص على مصالحه الجزئية ، بالسهر على مهود أطفاله ، بتكييف النفوس الغضّة من فتيانه ، بترقية لغته ، بنشر فكره ، بتمجيد البليغ من أقلامه ، بترويج صناعته وفنه ومنسوجاته ، بالاقتصاد وإحكام وضع الأشياء في مكانها . تؤثر بانعاش روح الوطن ، بتقدير تاريخه ، بالثقة في مستقبله ، بعبادة شاراته وأعلامه !

الشرق ينهض ، أيتها السيدات ، وهنيئاً لمن أدرك كل ما في المسؤولية من فخر ، وكل ما في العمل من نصر . الشرق ينهض ولو كانت جباه رجاله مثقلة بالأحزان وجماعات من شبيبته منصرفة الى اللهو والنسيان ! الشرق ينهض وهنيئاً لكل من كان بعملهِ وقلمهِ وصوتهِ ذا أثر في تكييف النفوس ! وهنيئاً لطلّاب العلم بالممكنات التي يتمتعون بها ممتازين بذلك عن كل جيل سبقهم ، لذلك كان ما ينتظر منهم أعظم من كل ما جاء به غيرهم .

علمت أمس الأول ان سيدات بيروت اكتتبن لصورة وردة اليازجي وأهدينها الى دار الكتب الأهلية في تلك المدينة لترفع صورة الشاعرة بين صور كبار الرجال والعلماء . هذا في بيروت . وحسبها في تقدير فضلها هنا أن تجتمع اليوم على ذكرها السيدات المصريات وغير المصريات فيحيين من اسمها النفحة الشجية !

وليكن لكنّ من هذه الذكرى أثر يبقى بعد هذا الاجتماع . فلتحمله ربّات البيوت لأن « وردة العرب » كانت بنتاً مباركة ، وأختاً حصيفة ، وزوجة وفية ، وأمّاً صالحة ! ولتحمله ناظرات المدارس والمعلمات لأن الشاعرة بتعاطيها التدريس وعنايتها بإخوتها وأخواتها في حداثتهم كانت مثالاً يُحتذى ومثلاً تستمد منه التعزية في مهنة التعليم الشاقة النبيلة .

ولتحمله الطالبات اللاتي سيجتزن عمّا قريب عقبة الامتحان السنوي . فاليازجية كانت تلميذة نشيطة وان لم يكن لها وسائطهن ، وظلت طول حياتها تطلب العلم وتوصي بالمعرفة والاستنارة . وليقل ذكرها لكل منا أن العمل الصالح الذي تأتيه المرأة النابهة يتخطى جيلها ويخدم الأجيال التالية ، كما ان حبة القمح في أرض خصبة تضمن تغذية الجماهير في مقتبل العصور .

فلتذكر نساء مصر وردة اليازجي وأخواتها السوريات الناهضات كما تذكر نساء سوريا عائشة تيمور وباحثة البادية واخواتها المصريات الناهضات ! وليتأثرن بذكرها وفضلها كما تتأثر بنات سوريا بنهضة المرأة المصرية فيتحمسن لها ويفاخرن بها !

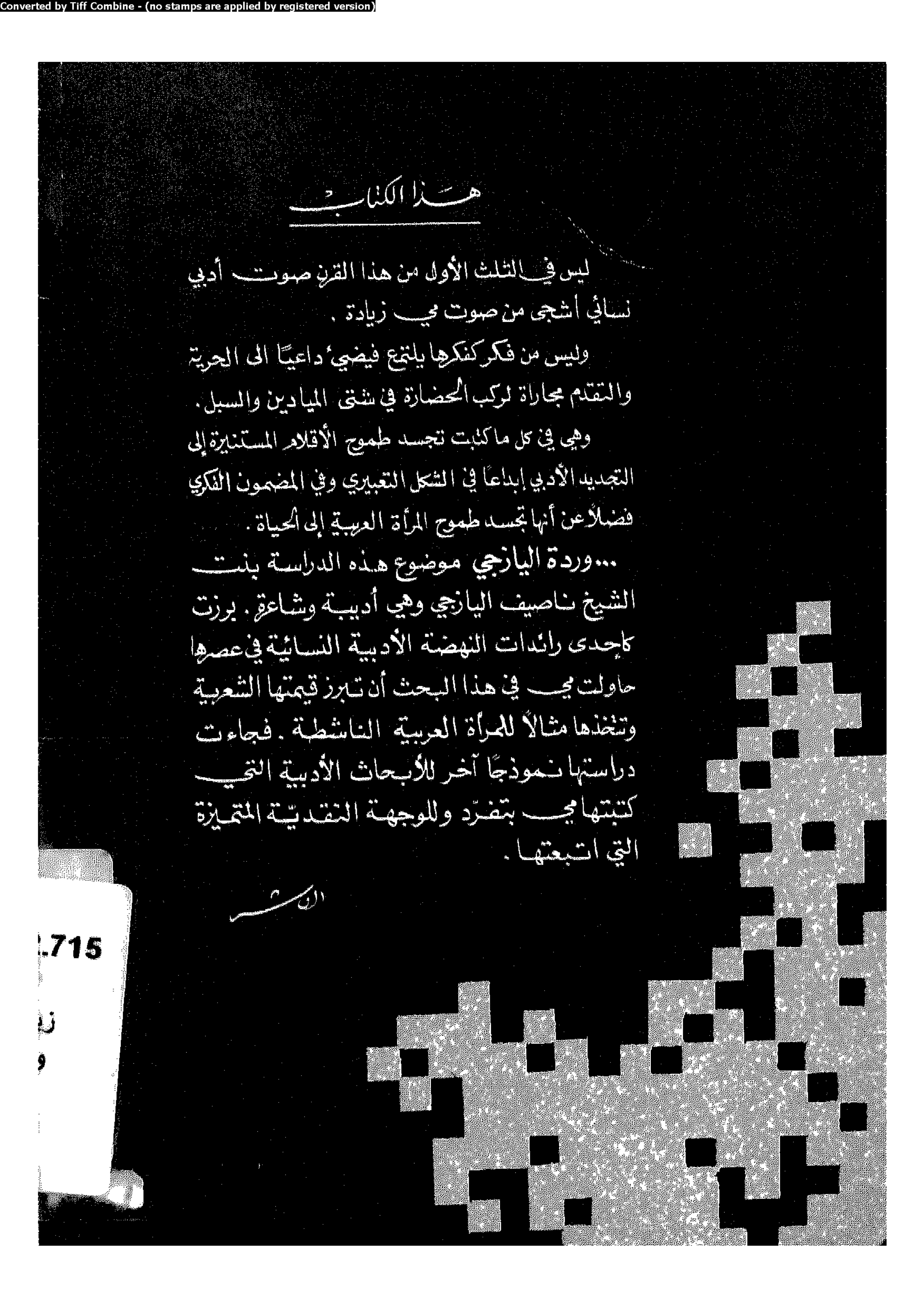
وحسبي ابتهاجاً أنا ابنة القطرين أن أرسم صورة ولو واهية من إمرأة شرقية لاخوات شرقيات أحبُّ منهن الوطنية ، وأهتف مثلهنّ هتاف الحماسة وأنشد من قدوتهنّ التقدم والعرفان وخير الأوطان !



فهرست







هذا الكتاب

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي أشجى من صوت مي زيادة .

وليس من فكر كفكرها يلتمع فيضي داعيًا الى الحرية والتقدم مجاراة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل.

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة إلى التجديد الأدبي إبداعًا في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة العربية إلى الحياة .

...وردة اليازجي موضوع هذه الدراسة بنت الشيخ ناصيف اليازجي وهي أديبة وشاعرة . برزت كإحدى رائدات النهضة الأدبية النسائية في عصرها حاولت مي في هذا البحث أن تبرز قيمتها الشعرية وتتخذها مثالاً للمرأة العربية الناشطة . فجاءت دراستها نموذجًا آخر للأبحاث الأدبية التي كتبتها مي بتفرد وللوجهة النقدية المتميزة التي اتبعتها .

الناشر